العناصر الاقتصادية والصناعية

في موقف ايطاليا الحربي

ما وراء أسباب الحرب

وما بعد نهايتها

لنقولا الحداد

— ٥ —

أنا الشرق
أحتمي من العالم بنفسي
أستمد من العالم بالله
« أم ، أم ! » — الله ! الله !
ساعة ، ثم سكرة ، ثم آية
إلّه عينه سوداء (١) ، وشيطان عينه حمراء (٢) وملك عينه زرقاء (٣) ، يلبسون
ثياب الحياة ويعبدون إلى قديم الحياة
يرقصون في ظلال البنان والنخيل
ويحرقون البخور في هيكل أحلامي
ويرسمون ، ويتشبدون ، ويسبحون طالبين الإطلاق —
الإطلاق — إطلاق النفس والعقل والروح والجسد
يهتفون : « وآهم ، وآهم ، وآه » ويرقصون
يسبحون : « لبيك اللهم لبيك ! » ويسجدون
ثم في ساحات المدينة يخطبون ، وبالأبواق ينفخون
وعلى الثورة يحرضون
« لبيك اللهم لبيك ! »
« واذكروا الرجيم الأحمق وإن كان حاملاً الخلاص »
« ولا تخافوه وإن كان حاملاً مدفعاً ورشاشاً »
« ولا تعاملوه وإن كانت بضاعته هبة »
« وآه ، وآه »
« لبيك اللهم لبيك »
ساعة من الابتهاج الروحي حول سرير الوطن يتلوها استسلام طويل تحت

(١) الدين (٢) السياسة (٣) الأدب

عرش الله . ساعة ثم سكرة ثم أعجوبة

أبحث عن ذي العين السوداء ، وذي العين الحمراء ، وذي العين الزرقاء فلا أجدهم بل أسمع مايشبه أصواتهم في سراب الا « كرما » وفي قباقي القضاء والقدر أنغاماً شجية وروحية تذيب الشهوات أشواقاً ، وتحوك للنفس أحجبة من خيوط الشمس وتفرش لها طريق الفرقدين أزاهر سرمدية ولكني ، وآسفاه ، استغرب هذه الأنغام اليوم ولا أستحبها ، وبالأخص عندما أطالع : يا فتى الغرب صحافة بلادك الفضاحة التي تنبئني بما لطياراتك من العولمة والاقتدار ، وكيف يمكنها ان تنسف أساطيلك البحرية وتبيدها

— ٦ —

أنا الشرق .

عندي فلسفات ، وعندي أديان

فمن يبيعني بها طيارات ؟

أخبرها سفاهة مني أو تظنها تجديفاً ؟

قد يكون ذلك ، قد يكون

أنا نفسي أجهل اليوم صوت نفسي

صوت المجالس ، وصوت المنابر ، وصوت الصحافة

أجل أن لي أيضاً صحافة فضاحة يا فتى الغرب

ولي منابر لا ترضى بها آلهة أجدادك .

ولكنها منابر جديدة ، حريتها فتاة لا تعرف التحويه فلا تسمك ما يسرّ إن تجبها بما تريد

وهناك سرٌّ أهمسه في أذنك يا فتى الغرب

ليست الأديان والفلسفات ما تظنها

وليست ما تظنّ أني أظنها

فلا للعراقة هي ولا للتجارة ، ولا للسياسة ولا للتشف

إنما الأديان والفلسفات كصافي الماء
هي مصافي الحياة تصفيها في الأنفس من بعض الحشرات والجراثيم

— ٧ —

أنا الشرق
عندي تذوب الألوان كلها وتمتزج
فتمتاوج نوراً بيضاء في بعض لحظ ربيبة الزمان
ألوان الغروب ، وألوان الفجر ، وألوان الليل السرمدية . لها كلها أفق واحد عندي ، وسماء واحدة
من الأخضر الناضر الذي للنبوة التي تزرع الزرع بذورها
الى الأصفر الناقع الذي للسر الذي يخلع العذر والعذار
الى الأحمر القاني الذي لإرادته لا تذعن لبشر أو جن
الى الأزهر الباهر الحيال بسحر الساحرين ياماً
هذه سلم من النفسيات لا تجدها عند سواي
وهنالك الأرجوان نسمعه يجلس على العرش ، والزعفران نجد صوت عروشه
والخلنجار يمتاح ظلالاً تحول عرش الأهواء والشهوات
والرماد الشاحب لما كان في سماء الفكر كوكباً نيراً
والأسود القاتم نصفر اصبع شاعر حمل عصا التأديب
والأبيض الناصع نصربق نحمل غصناً من الزيتون
كما تمتزج في آفاق نفسي ، وتذوب في سماء آمالي وتشعيل حمراً في كأسي أجل ، ان خير الأجيال الغابرة ، وخير الأجيال الحاضرة التي لم يحصن تنفسها الزمان لملأ الكأس التي أشربها كل يوم
فتعيد إليّ روح النبوة القديم المجيد ، وتثير فيّ أم الذكرى ، وتجدد فيّ حب الجهاد

حكمة الطبيعة في الثمر

عندما ننظر الى الأثمار الفضة والخضرة والرياحة وغيرها كالتفاح والعنب والبرتقال والتين، نظن أن هذه الأثمار مقصودة بالذات في الطبيعة، ونحسب على شدة غرورنا، أنها انما خلقت لتكون غذاء للانسان. ولكنها في الواقع ليست مقصودة بالذات، ولا الانسان غايتها الأخيرة بل ان الطبيعة ابتدعتها لغرضين، الأول وقاية البذور النبات حتى يتم نضجها. وثانياً ان تكون وسيلة لتفريق بذور النبات. فلون البذور والاثمار وشكلها وطرق انشقاق الثمرة كل ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأساليب نثر البذور وتفرقها. وأشهر هذه الوسائل مايلي: أولاً ان تكون وسيلة ميكانيكية في قاعدتها، والغالب ان تكون البذور متعددة في ثمرة كثمرة الخشخاش او البنسية فيحوم الثمر عند نضج البذور وينفتل وينشق فتنثر البذور. والثانية ان يكون الماء وسيلة لتفريق البذور وأشهر مثل على ذلك جوز الهارجيل او جوز الهند الذي يطفو على الماء وهناك نبات آخر يدعى زنبق الماء لبذوره نسيج اسفنجي يحيط بها ويمكنها من أن تطفو مسافة غير قصيرة قبل أن تبتل وتغرق. والثالثة ان تكون الريح وسيلة لتفريق بذور النبات. وللرياح النزعة الكبرى في ذلك فانها تحمل البذور المعدة من قبل الطبيعة لذلك على عاتقها وتعبر بها الأنهار والبحار. ومن المعلوم ان الرياح لا تستطيع ان تحمل الا الخفيف من البذور أو ما له شعر او زغب او أجنحة. ورابعاً ان يكون الحيوان وسيلة لتفريقها فتارة يكون حول الطعم جهاز تنشر فاكهة الثمر وتلقي بذوره بعيداً عن أمه. ومنها ما يعلق بطعام الحيوان ويدخن جوفه ويخرج سليما مع براز فيسمو حيث يقع. وقد روى داروين اثني عشر نوعاً من بزور النبات التي وقعت في بطانه من زرق الطيور مدة شهرين فقط تزرع بعضها فأفرخ. هذا علاوة على ما يلصق بصوف الحيوانات وريش الطيور وقوائمها. وقد روي أن عالماً يدعى الأستاذ بيون وهو غير الفيلسوف اسحق نيوتن، اصطاد حجلاً فوجد برجير كرة من الوحل لاصقة بريشه فحفظت هذه الكرة ثلاث سنوات، ثم بلت ووضعت تحت أنبوبة زجاجي فنبتا فيها ١٨ نوعاً

وكذلك تتبين، ما في الطبيعة من المتانة والروائع. فاذا سرحنا النظر في الحدائق، ورأينا الأشجار والأزهار والأثمار والبذور والهوام والحشرات والطيور، وكان لنا من القواعد الأساسية في التاريخ الطبيعي عدة، تهدينا بها الى ما وراء الظواهر، وجمعنا الى اللذة النفسية والمتعة الفنية اللتين تختلجان في صدورنا عند ما نشاهد الألوان أو نشم العطور، لذة عقلية مردها الى ما نجليه من الأسرار التي ركبها الله في الطبيعة من أدنى المكونات الى أعلاها

العناصر الاقتصادية والصناعية

في موقف ايطاليا الحربي

خرجت ايطاليا من الحرب العالمية الاولى في صف الدول الظافرة ؛ مع ان حلفاءها اضطروا ان يمدوا يقواتهم الى عدائها الشمالي ، ليتمكنوا من كبح جماح النمسا . وكان العقل يقتضي أن يردها ظفرها بين حلفائها دولة راضية ، ولو لم تبلغ جميع ما كانت تطمح اليه . ولكن مؤتمر الصلح ردها دولة ناقمة . فحي بحكم العامل الاول يجب ان تؤيد السياسة التي تمت بعد الحرب الكبرى . الا انها بحكم العامل الثاني ، كانت ترى ان تشبع معاهدات الصلح بنية ان تتوزع كلمة تطمح فيه وتطمح اليه . فلما وقعت الحرب ، ولم تشبع بالصلح

فلما تم النظام الجديد نيكا ، نظام التعمان السود ، ولد الدولة الكبرى . فحرك هذا السلوك موسوليني من روما شاعر ايطالي مبدع ، أساساً لسياسة خارجية . كانت الحكمة تقضي أن تستند الى الحقائق ، لا الى توقع ، دون أحلام الشعراء . ذلك بأن دائرة الشعر والخيال ، بالنسبة للشعوب أكثر قبول الحرب الفاشية مسرحية عظيمة الشبه بالمسرحية التي شرع فيها الحرب في نفسه من روما في إن يرى ايطاليا سائدة طريق الموسيقى الأمبراطورية ، ان تعيد كثيرة من الشعب حينئذ الى ان الشاعر مجد البحر المتوسط فيما منخطاً فيه . اذ هو سمح بأن هذا البحر بحيرة ايطالية ، أو « بحرنا » (ماري نوستروم) على ما كان يسميه الرومان الاقدمون

هذه الصورة الشعرية اتخذها زعيم النظام الجديد في ايطاليا ، وحاول ان يحققها بسياسة خارجية يقدر أن تتوافر لها العوامل الأساسية التي لا بد من توافرها لتحقيق هذا الحلم . وهي ليست رهن بديهي ولا موضع أمره . فكانت النتيجة ، سياسة التعمين فتدخل في حبشة ، ومحاولة الاعتداء على الحبشة ، ثم التدخل في اسبانيا ، ثم احتلال البانيا . وكان ينبغي قبل ظهور تعهده أولاً وشريكه الأكبر ثانياً في الشمال ، أن يسيطر على منطقة الدانوب . وهذا مدين عليه باعتباره جمهورية النمسا وركناً من أركان هذه السيطرة ، لذلك قتل في خطبة له في ميلانو في ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٤ بعد انقضاء شهرين ونصف شهر على مصرع مستشارها دولفوس بأيدي النازي النمسوي : « لقد دافعنا عن استقلال النمسا ، وسندافع عنه في المستقبل كذلك » . وفي السنة نفسها

قال في خطبة له : « سأوجه انظاركم الى أهداف تاريخية يجب أن يتجه اليها جيلنا والأجيال التي تليه . هذه الأهداف تحمل اسمين وهما : آسيا وأفريقيا »

ومن ثم أشار بمصره الى السيطرة التامة على البحر المتوسط . فعدت اسبانيا ، وآسيا الصغرى ومصر ، واليونان ، وشمال افريقيا ، والشرق الأدنى ، أهدافاً لسياسة الفاشيين الخارجية وخططهم الحربية . فكأن « النظام الجديد » في ايطاليا بهرته صورة الامبراطورية الرومانية في عهد الامبراطور أغسطس فأراد رجاله ان يبثوها بعد انقضاء ألفين من السنين

وعندما عرضت الجيوش الايطالية في روما ، في مايو سنة ١٩٣٦ ، بعد سقوط أديس أبابا خطب السنيور موسوليني في الجماهير من شرفة قصر البندقية فقال : « إن عقبان امبراطوريتنا القديمة حلقت مرة أخرى فوق آكام روما التاريخية » . وصنعت الخارطات ورسمت لتكوّن مثلاً جسيماً لما يريد . فاذا هي تحتوي كل أوربا الوسطى والجنوبية الغربية ، والجنوبية الشرقية ، وآسيا الصغرى ، والشرق الأدنى ، ومصر ، وشمال أفريقية . وكان البحر المتوسط في هذه الخارطة بحيرة ايطالية في نطاق هذه الامبراطورية المترامية الأطراف .

***

هذه هي صورة الشاعر ، مترجمة في ألفاظ السياسي ، ولكن هل ينهض موقع ايطاليا الجغرافي الحربي ، هل يرتفع اقتصادها القومي الى مستواها ؟

تمسكت الصورة خيال ايطاليا الفاشستية ، فخرجت سياستها عن حدود العقل والحكمة . انها تريد ان تضيء امبراطورية واسعة الجنبات ، مترامية الأطراف ، فراحت بالمعاكس للاستيلاء على بلدان لا تنتج او يتعذر فيها الا انتاج . فالعمال والفلاحون الذين أمّوا الحبشة ، لتستخلص الآمال بحسن احوال وحسن المآل ، لم يلبثوا طويلاً فيها ، حتى بدأوا يعودون ، وآثار الخيبة مرتسمة على جباههم . كان عددهم فيها في مارس سنة ١٩٣٧ مائة وخمسة عشر ألفاً ، فزاد في مايو من السنة التالية (١٩٣٨) على ثمانية وعشرين ألفاً لا غير . أما في ليبيا ، فالارهاب الايطالي ، قد مزّق شمل السكان ، وأما أسبانيا ، فلها من تاريخها المجيد ، وتقاليدها العريقة ، وطبائع شعبها ما يمنع أقدم دولة مستعمرة في أوربا ، ان تصبح مستعمَرة لأحدث دول أوربا الكبيرة وأقواها . وسائر بلدان البحر المتوسط على هذا القرار

والخطأ الأساسي في كل هذا المسعى ، هو التطلع الى انشاء امبراطورية عظيمة منتشرة على سواحل البحر المتوسط ، بغير ان يكون مركز هذه الامبراطورية ، متقلداً سيادة هذا البحر ، أو مالكاً زمام القاصر اللازمة لهذه السيادة

وفي سنة ١٩٣٨ أعربت ايطاليا، اعراباً لاريب فيه، عن أغراضها المباشرة في هذا البحر وهي مصر وشمال أفريقيا الفرنسي. وقد طالبت بتونس وكورسيكا، لأنهما تمكنانها من مواقع تتيح لها السيطرة التامة المطلقة على وسط هذا البحر فتمنع في حالة حرب الاتصال بين غربه وشرقه. أي ان ايطاليا ترمي الى قلب ميزان القوى في البحر المتوسط تلبية تامة بخروج فرنسا وبريطانيا منه

إلا أن تحقيق غرض من هذا القبيل يقتضي «حرباً كلية» وان خوض ايطاليا حرباً من هذا القبيل، يثير مسائل متعددة في مقدمتها مسألتان:

أولاً — ما هي الموارد المادية والاقتصادية والصناعية التي تعتمد عليها دولة تنوي ان تدخل حالتها تمثلاً خطيراً هذا مداه، وهو شيء يقتضي قوة عظيمة في البر والبحر والجو، وموارد وافرة في المصانع والمناجم والمزارع

ثانياً — ما تأثير سياسة خارجية من هذا القبيل، وحرب كلية من هذا القبيل، في حالة البلاد الداخلية

***

ان البحث الدقيق المتأنّي عن الهوى، يدل دلالة قاطعة على ان البون شاسع والفرق عظيم بين الاهداف المتوخاة، والقدرة اللازمة لتحقيقها. وفي هذا قال غيره يجب ان نلتمس التفسير الصحيح لسلسلة النكبات التي أصيبت بها ايطاليا او الحوادث التي حدثت لها في العهد الأخير

ان القوة الحربية التي تتمتع بها دولة عظيمة في هذا العصر تبقى على ثلاثة أركان أساسية:

أولاً: صناعات ثقيلة وافية. ثانياً: موارد كاملة أو قريبة من الكاملة بحاجات الصناعة الحربية المتعددة. ثالثاً: الصناعات الهندسية. فلنلق نظرة عاجلة على كل منها على حدة:

أساس الصناعات الثقيلة: الفحم والحديد الصلب. والصلب. والفحم شأن خاص بالحديد في الارتفاع، على الرغم من احلال البترول محله في السفن التجارية والحربية. وبركات البترول في المواصلات الحديدية. فلا غنى عنه في صناعة الحديد، ولا غنى عنه وقوداً في كثير من الصناعات الكبيرة. وقد أخذ شأنه يسمو في العهد الأخير، لاستعماله واستخلاص قطرانه في صنع الأعراض الكيميائية، مثل البترول من الفحم، والأصباغ من القطران وهكذا. وموارد ايطاليا من الفحم أقل من موارد أية دولة كبيرة أخرى في أوربا منه، بل أقل من موارد أية دولة أوربية أخرى تنتج الفحم على الاطلاق. وناتجها منه يبلغ مليون طن في السنة بينما بلغ انتاج بريطانيا سنة ١٩٣٨، ٢٣٢ مليون طن، والمانيا ١٨٦ مليون طن، والاتحاد

السوفيتي ١٣٠ مليون طن ، وفرنسا ٤٥ مليون طن . فانتاج ايطاليا اقل من نصف واحد في المئة من انتاج بريطانيا وأكثر قليلاً من نصف واحد في المئة من انتاج ألمانيا . واذا تحولنا الى الدول الاخرى وجدنا انتاج بولونيا يفوق انتاجها ثلاثين ضعفاً وكذلك انتاج بلجيكا . وانتاج تشيكوسلوفاكيا يفوق انتاجها ٢٠ ضعفاً وانتاج هولندا عشرة اضعاف

وحاجة ايطاليا في السنة العادية الى نحو ٢٠ مليون طن من الفحم في السنة فانتاجها لا يغطي من حاجتها اكثر من ٥ في المائة

والذي من ذلك انها كانت تستورد ما تحتاج اليه من بريطانيا والمانيا وبولونيا ، بحراً . فاذا أوصد البحر في وجهها كما اوصد الآن ، فيجب ان يكون النقل بسكك الحديد . والسكك الحديد في اوربا لا بد ان تكون في حالة حرب ، مرهقة بنقل اشياء كثيرة ، علاوة على تعرضها للغرق والتعطيل بفعل قاذفات القنابل . فلا يبقى امام ايطاليا في حالة كهذه الا ان تعاني الفاقة في مادة حيوية كهذه المادة

أما إنتاج ايطاليا من الحديد الصب في سنة ١٩٣٨ فبلغ ٥ في المائة من انتاج المانيا ، و١٣ في المائة من انتاج بريطانيا ، و٤١ في المائة من انتاج فرنسا . وكانت كل من بلجيكا وبولونيا حتى لكسمبرج ، تتفوق فيه . وانتاج الصلب يماشي ما تقدم . فانتاجها منهُ في سنة ١٩٣٨ بلغ ١٠ في المئة من انتاج المانيا و١٢ في المئة من انتاج روسيا . و٢٢ في المئة من انتاج بريطانيا . فجميع ما تنتجه ايطاليا من الحديد الصب والصلب لا يغطي الا ثلث ما تحتاج اليه منهما على الكثرة ومما يصدق من شؤون النقل وعثاته على الفحم ، يصدق بوجه عام على الحديد والصلب . فالأساس الذي تقوم عليه الصناعات الثقيلة فيها ، واه لا ريب في ذلك

***

أما فيما يتعلق بالركن الثاني ، وهو موارد الخامات الصناعية والحربية ، فليست ايطاليا أحسن حالاً منها فيما يتعلق بالفحم والحديد والصلب . فهي تحتاج الى استيراد كل معظم ما تستهلكه من بترول ومشتقاته ، والنحاس ، ومعادن اخلاط الصلب اللازمة لصناعة حربية وكذلك خامات صناعة المنسوجات كالصوف والقطن . ومعظم هذا الذي كانت تستورده كان يجيئها على الأكثر عن طريق قناة السويس ، او جبل طارق ، وهو الأكثر او من البحر الاسود عن طريق الدردنيل وسائر بلدان البحر المتوسط . ومعظم هذا قد قطع الآن بفعل الحصر البحري . ولا ريب في ان الحكومة عمدت في خلال النصف الأشهر الأولى من هذه الحرب ، عندما التزمت موقف دولة غير محاربة ، الى تخزين ما نالته من الخامات الصناعية والحربية . ولكن كل مخزون الى النفاد ، ولا سيما ان قدرتها على التخزين كانت محدودة بقلة ما تمتلكه

من النقد الأجنبي لتوفية الثمن. وتعويض معظم مايعوزها مما تقطع عنها متعذر او صعب، لأن منها مواد لاتوجد في أراضي جوارها على بر القارة الأوربية، كالملاط ومعظم معادن الاخلاط، ولأن نقله بسكك الحديد خاضع لما سبق القول فيه من ارهاق السكك الحديدية وتعرضها لمرقة بفعل ضرب القاذفات

اما الركن الثالث وهو الصناعات الحربية، فالايطاليون يجيدون فيها، ومصانعهم تصنع السفن التجارية والحربية والسيارات والطائرات وقاطرات السكك الحديد ومركباتها. ولكن انتاج هذه الصناعات محدود في حالة الحرب بحدود الخامات اللازمة وقد تقدم ذكرها

ويضاف الى كل ما تقدم ان تفرق البلدان التي يجب ان تدافع عنها، وانه ليتعذر عليها كل صلة بالجاليات التي تحميها، او التي تنوي ان تستعملها قواعد لهجوم على غيرها، وتبعة بعدوها على سيادة البحار، لان الشق الجوي وحده لا يكفي الا لشن حرب محدودة من الوجهة، ولا بد ان يشترك معه شق الاسلحة الخفيفة. اما مقادير الزاد والماء التي يجب ان تأتي الاسطول المعتمد من مدافع ضخمة ودبابات وما اشبه، فنقلها متعذر ان لم يكن على امتلاك القوى البحرية — او الحصول بالتفاق — على ايطاليا

ومن هنا نفهم الموقف الحرج الذي وجدت فيه جيوش السوفيت بكاريا بعد نشوب الحرب الايطالية اليونانية، وإباحة كريت قاعدة لسفن الحربية والطائرات البريطانية، واستقلاله حكم [illegible] قواتها الجوية. ولا شك في ان لهذا وذاك تأثيرا كبيرا على [illegible] جراوياني عن الوجوه التي مهد لها مقدمة الى سيدي برانى. واخر تحجيزه عن [illegible] الوجوه تعتمد على جيد اعتمادا وثيقا كبيرة في خصبه وحربه معتمدا عليه [illegible] ايطالية في احبشة والاريترة، وخطوطها وهن بقفاه جانب ما حرى فيه من صلاح [illegible] البلاد بايطاليا مقصورة الا عن طريق الجو

ورجح الحرب الفنيون يدركون قيمة هذه الخطوط في كل [illegible] حربي، التي تحميها بدافع من فطرته وبطبيل من تصوره، ولكنه كان الشعب وشعر [illegible] الجوية [illegible] وثبتي على التفكير الفني، ويجال الخطأ في هذه التوحي [illegible] هو حادث على إسناد جبال الالب، وفي رمال صحراء مصر الغربية، وفي دوائر الجيش والاسطول العليا ومجالس الشعب ونفوس الناس (١)

(١) ملخص حديث لاسلكي لرئيس تحرير المقتطف أذيع من محطة القاهرة بعد معركة سيدي برانى، وليراجع القارىء فصلا قصيرا له في المقتطف الشمس ١٩٣٩ ص ٣٣٣ وعنوانه « خدمات الصناعة والحرب وأخواتها »

ما وراء اسباب الحرب

وما بعد نهايتها

لنقولا الحداد

وراء الاحداث الظاهرة التي نراها عوامل طبيعية سببية قد لا نراها وانما نستدل عليها اذا تتبعنا سلسلة المسببات والاسباب . مثلاً نرى المطر ينهمل بعد انخفاض درجة الحرارة اذا كان البارومتر ينبئنا بكثافة الجو . إلاَّ أنَّ هناك سبباً اقصى وهو اقتراب الارض في دورتها الى نقطة الدنو حيث تكون أبعد عن الشمس . فالحرارة الواقعة من الشمس عليها تكون اقل فيبرد الهواء ويسقط بخار الماء الذي فيه مطراً ".

والاعتقاد الشائع مبناه على الظواهر الاجتماعية ان بذرة الحرب الحالية زُرعت في معاهدة فرساي . وهذا كان مبتدأ كفاح رام أن يهيج غضب الشعب الالماني بضرب على وتر فرساي التي أفضت اليها الحرب السابقة . فمعاهدة فرساي كانت نتيجة الحرب السابقة التي انتصرت الحلفاء فيها وانطلت فيها فعوقبت بتلك المعاهدة . فليس لهتلر ان يتذمَّر منها

دعنا من هذا الجدال . سلَّمنا أن معاهدة فرساي سببت هذه الحرب الحاضرة . فما الذي سبَّب الحرب السابقة التي افضت الى معاهدة فرساي ؟ قد نرد سببها الى حرب السبعين التي انطلت فيها فرنسا فأملى بسمرك حكمه عليها في فرساي نفسها . ثمَّ ما الذي سبب حرب السبعين ؟ اذا تمادينا في التعليلات التاريخية فلا نقف عند سبب لعدَّه سبب الاسباب . فالحروب المتتالية بل نجد سلسلة او سلاسل من الاسباب لا اول لها حتى ولا مقتل هابيل

كل حرب مصحوبة بتطور اجتماعي جديد

اذا راجعت تواريخ الحروب منذ القدم الى الآن وقفت في طبيعة كل حرب وفي تأثيرها وجدتها مصحوبة بتطورات اجتماعية أو سياسية منجذة أو مستجدَّة . والتعليم الأهلية المتداخلة والقوانين الدولية ايضاً انما هي صور هذه التطورات . كان نظام الشيخة عند بني اسرائيل بعد توغلهم في ارض الميعاد نتيجة حروبهم مع الكنعانيين . فقد رأوا ان نجاحهم في حروبهم وفي حياتهم الاجتماعية لا يكون الاَّ بنظام حكم الشورى فاتخذوه

ونظام الاقطاع لم ينشأ ويعم اوربا الاَّ باستمرار الحروب بين ملوكها تنازعاً بسط السيادة .

ولم يكن اولئك الملوك ليحصلوا على جنود الا بواسطة قوّاد امراء حرب. فكان الملوك يقطعون هؤلاء الامراء القواد الامارات لكي يجمع هؤلاء لهم الجنود ويجيبوا لهم الاتاوات الإنفاق على الحرب. وما انقطع دابر الاقطاع الا لما نشأت طبقة الصناع واهل الفنون والتجار. فقلّ الزراع في املاك الامراء واضطرّ هؤلاء ان يبيعوا املاكهم وطفقت ثروة الارستقراطي تتوزع على العاملين رويداً. ثم شرع نظام الاحكام الفردية المطلقة الاستبدادية يتوارى، ونشأ نظام الحكم الشعبي (الديموقراطي) يقوم مقامه تدريجياً. جميع هذه التطورات الاجتماعية كانت مسحوبة بحروب طاحنة. وما انتهت حرب الا بتطور اجتماعي جديد كانت تهيؤه روح الاجتماع وتحرض عوامله على اثارة الحرب لكي تهدم للنظام القديم وتبني على انقاضه النظام الجديد.

وتعني بروح الاجتماع اختيار عقول الجمهور بفكرة واحدة أو عقيدة واحدة أو مبدأ سياسي أو إقتصادي واحد كفكرة الديموقراطية مثلاً. وشيوع فكرة ما أو عقيدة ما أو اختيار يحدث بعوامل مختلفة لا محل لتفصيلها هنا. لنوجه انظار القراء اليوم الى كتابنا عن الاجتماع.

فكلما تغيرت العوامل الاجتماعية عما يستجد من مبتكرات العقل البشري التي تغير من شعور الحياة الاجتماعية والفردية كاختراعات ونحوها حدث تطور جديد في النظم الاجتماعية. ولا يمكن ان يحدث هذا التطور الا بهدم نظام قديم وبناء نظام جديد. والحرب اداة هدم الهدم.

ذلك لأن النظام تقليد (Tradition) اجتماعي. فالناس التي تقلد التقليد القديم احياناً بالتقليد القديم تعاندها حيناً. لأن التقليد القديم عند كل جيل تجديد بصورة ما. وقد تشتد المعاندة الى أن ينشب بين أحدهما. ومعنى هذا أن لتقليد القديم انصاراً يدافعون عنه. ويخسرون في انصار النظام الجديد. فيحاربون هدم القديم. ويقع القتال بين الفريقين. فإن انتصر الجديد هدموا القديم وبنوا جديداً على انقاضه. والا بقي القديم حيناً آخر إلى ان يكون انصار الجديد ويستفحلوا أو يستأنفوا القتال.

مثال ذلك الديموقراطية قامت خصماً للحكم الفردي المطلق منذ عهد [illegible] كان انصارها [illegible] واستفحلوا. وحاول [illegible] في حرب تعرف بحرب [illegible] روح الاجتماع» هذه التي نحن بصددها. والحرب اذا هي مخاض المجتمع بالنظام الجديد.

الحرب الماضية تمخضت بجامعة الأمم لأن العوامل الاجتماعية التي سبقتها كانت تمد الأفكار لهذه الجامعة كضمان للسلام. وقد سبقتها محكمة العدل في لاهاي، ومؤتمرات سلام متعاقبة. وكانت جميع هذه نظماً غير ناضجة فما نجحت. وتمخضت حرب البوير باتحاد مستعمرات جنوب افريقيا. وحرب تحرير اميركا الشمالية تمخضت باتحاد الثلاث عشرة ولاية الأولى التي كانت

في ذلك الزمن تحت السيطرة الانكليزية . فلننظر في ضوء هذا الشرح فيما هو السبب الحقيقي الثواري وراء الأسباب الظاهرة لهذه الحرب . وفيما هو النظام الجديد الذي تتمخض به

قبل السبب « نريد ان نعيش »

المحرض الطبيعي لاي حرب هو الحرص على حاجيات الحياة . ما الحرب الا تنازع الرغيف (تنازع البقاء) . البواعث الأولى لاية حرب انما هي اقتصادية اولا . هتلر يقول « نريد مستعمرات لكي نعيش » . موسوليني يقول « بلادنا ضاقت بنا نريد التوسع (الفتح او الاستعمار) لكي نعيش » . الدعوى صادقة الى حدّ ما وكل منهما يذرع بها الى كرسي الحكم لا الى رفاهة قومه لأن قومه لم يتركوها حتى الآن ، بل هم في ضنك من الجهاد في العمل ومن شظف العيش . ضراخ العمال العاطلين قبل الحرب الماضية وبعدها « نحن جياع نريد عملاً لكي نأكل » يؤيد صدق تلك الدعوى ظاهراً او الى حدّ ما

كان هتلر في خطبه النارية يستثير العامة بصراخه : « أن معاهدة ڤرساي التي اختلست من المانيا مستعمراتها كانت سبب بطالة العمال » وكان يلم حوله جمهور الغوغاء بوعود يبذلها لهم بأنه سيسترد المستعمرات ويعمر الأعمال للعاطلين . ولما نجح في الوصول الى كرسي الحكم صار يحي الرأسماليين أيضاً بتبشيرهم بأنه لن يحرم أموالهم . وهكذا خدع العمال وتملق أصحاب الاموال باستخدام الفريقين للسلاح

دعنا من شعوذة هتلر التي استمسك بها من انتفض على عنق أمته وتبحث في السبب الحقيقي لصراخ الغوغاء الجائعين في طلب الرزق . أحقيق أن بلاده ضاقت بهم وضاق الرزق فيها هل كانت المانيا بخيلة فقيرة ؟ هل كانت ايطاليا في فاقة حقيقة ؟ حتى لا يبقى فيهما رزق لفريق العمال ؟ ؟ إذن « من اين جاءت تلك المعدات الحربية الطائلة ؟ أيمكن ان تكون دولة كل منها قلعة متحركة ، ملايين المدافع الضخمة ، ملايين ملايين القنابل ، مصنوعة ، مائة وثمانون غواصة ، الف طيارة ، نهاية الى عشرة ملايين جندي مدججين بسلاح ناطق عن الملحقات التي لا تحصى اللازمة لهذه المعدات من مؤونة وملابس ومطارات وحدائق ودور البست كل هذه ثروة عظيمة ؟ أم كانت تكفي العمال عاطلين وغير عاطلين خبزاً وزيتونة ثم تتمتماً بجلدات الحياة كل هذه العشرين سنة التي مضت بعد الحرب السابقة ؟ أما كانت تكفي العامة أن يعيشوا في يسر ورخوحة من العيش بجهاد أقل وفي هناءة أعظم ؟؟؟

بل . وانما انفقت جهود العمال في سني هتلر النازية في الاستعدادات الحربية الطائلة لا لكي تخلص المانيا (وايطاليا شاملة) من الفقر والجوع — فما هي جائعة — بل لكي يهدم النظام

السياسي الاجتماعي في أوربا خاصة توطئة لنظام آخر أصح ، لأن النظام الحالي لم يعد موافقاً لتقدم الصناعي العظيم ولا مجارياً له

سر القضاء الاجتماعي

ليس من مجهول قط ان النظام الاجتماعي الحالي كان سبب بطالة العمال وكان سبب الأزمات الاقتصادية المتوالية، وليس من مجهول أن النظام الحالي كان سبب تقتيل السلام وسبب تعاقب الحروب حيناً بعد آخر . فهذا النظام هو نكبة البشرية الآن . وهذا النظام المرفوض حتى لشخص مفتون مثل هتلر آلت برتقي الى سدة الحكم في أمة عانيا مثله لا يشتهون أي خطاء يرتكبون .

انما هناك وراء هذه الحوادث الأضطرابية التي قوضت بناء الأمن والسلام ، يد القضاء الاجتماعي ، التي سخرت هتلر وأعوانه وتازيته لتحطيم هذا النظام الشرير بعد عاناه مجتمع الانساني وانها لن تحولهم ان يبنوا نظامهم الخاص على انقاضه . فلو لم يتم هتلر لقام مفتون آخر يفعل فعلته الشنيعة مثله

كيف كان ذلك القضاء ؟

أصبحت الرأسمالية التي تتازع الحياة السلمية الهناء ترجس شرها من تذمر طبقة العمال في إبان بطالتهم كان هذه البطالة قسراً سببت تقاعد الرأسمالية عن الاستغلال وتوسيع رؤوس الأموال في المصارف من غير حدود

إذن النتيجة والاستمرار هما السبيل الاستمرار . ولا بد من الحرب تحتشد فيها الحرب تقضي للرأسماليين وطرين في وقت واحد : أولاً تقتل الفيض الذي صار في التجنيد والتسليح فيكون عن تجديد الرأسمالية . وكلا التجنيد والتسليح يحتاجان الى عمال يجندون ويسلحون يجدون الطرق التي يشرون فيها أموالهم . ومعامل التسليح التي تنتج الأسلحة الفتاكة تشغل العمال وتنتزعهم من التذمر والشكوى . والثروات التي تجدها الحرب تشرد تشريد

انتصار الرأسمالية في نظامين

كان توازن النظام الاقتصادي قد اختل واضطرب أيما اضطراب بسبب تزايد الآلات الميكانيكية الى ساحة العمل إذ استطاعها المليون ورموا الجانب الأعظم من العاملين الى الوراء فتدفق الانتاج واستغل المليون ، ولم يفضل منه للعاملين شيء يسد الرمق

ثم ان النظام الاستغلالي قد خوّل ذوي الأموال الوافرة احتكار الاستغلال فقدروا الى ورثتهم المتمولين الصغار، وهكذا أصبحت التجارة نصيب كبار المالين. وحالها نصيب المتمرزين والمال. فهبطت كفة الميزان بالمالين وارتفعت بالعاملين. اختلّ التوازن الاقتصادي. وكان اختلاله سبباً لاختلال الأمن وتقلقل السلام

ليس هذا فقط. بل هناك نظام آخر أخرق أيضاً عاون النظام الاقتصادي (الرأسمالي) على قلقلة السلام، هو النظام السياسي المتداعي — متداع لأن التوازن السياسي القديم الذي كان يحميه من السقوط الى أجل قصير قد زال. زال بسبب زوال التوازن الاقتصادي قد اختلّ ذلك التوازن السياسي في معاهدة فرساي

وكان من نتائج اختلال هذا التوازن ان النصب للوطنية اشتدّ واحتدم. وتلتت به الكتلة «الأممية» التي يسميها الأجانب انترناشيونالزم Internationalism بعد ان أوشكت ان يتجمع بها الأمم، تتكتّل. اشتدّ الحنق والحقد بين الأمم. أقيمت الحواجز المختلفة بين المالك. تعذر الاختلاط بين الشعوب على الرغم من توافر وسائل المواصلات. تعرقلت المبادلات التجارية. تعرقلت بسببها وسائل الانتاج. تعقدت المعاملات الداخلية والخارجية. توالت الضائقات الاقتصادية. علا النداء للقتال في سبيل الاستعمار. اشتدّت المخاوف بين الدول. أصبح الأمن الدولي خيالاً لا أنواماً له. أصبحت العلائق الدولية تهدد العالم كله بحرب مدمرة للعالم المدنية. تزايدت الذرائع لاجل نفقات التسليح — حدثت الحرب التي كانت الدول تتخوف من حدوثها

لماذا؟

لان النظام السياسي الحالي كالنظام الاقتصادي أصبح مزعزعاً لانه قائم على اكتاف البشر الذين يعانون من عدم صلاحيته بل من عسفه. فهم يبتغون ان ينفضوه عن عواتقهم. وهذا الانتفاض هو الحرب التي تدكّ الآن الى الحضيض

روح الاجتماع المنقض

اذن هذه الحرب لم يثرها بالحقيقة لا هتلر ولا موسوليني. بل هما أحقر من ان يستطيعا اثارتها. وانما هناك بدخنية أثارتها من وراء الستار هي بدّ «روح الاجتماع» التي لم تعد تطيق هذا النظام الاجتماعي الخانق لها. فهي تدمّر هذا النظام الذي لم يعد مساقاً للتقدم الاجتماعي العام — التقدم الصناعي والاقتصادي والاداري. تدمّره لكي تمهد الأساس لنظام آخر جديد يُجاري الميول الانسانية الجديدة وتطلق فيه روح الاجتماع نفسها

فما هو هذا النظام الجديد ؟

اما الجانب الاقتصادي منهُ فأصبح متداولاً على ألسنة الطبقتين : الطبقة المسماة بالوسطى (البرجوازي) وطبقة العمال . وهم يتصايحون به من قبل الحرب السابقة الى الآن . وقد شرعت بعض الدول تنفذه منذ شروعها بالتأهب للحرب . فالمانيا وضعت جميع مرافق الامة من مصانع ومعامل ومشروعات صناعية تحت سلطة الحكومة . وهذه تتحكم بدخلها وخرجها وتتحكم بمنتجاتها على الاستعدادات الحربية . وايطاليا على غرارها

ولما تحققت انكلترا ان خطر يجدُّ ولا يهزل فعلت كذلك . فسيطرت الحكومة بموافقة البرلمان على جميع المشروعات الانتاجية في البلاد على اختلاف انواعها لكي تستغلها لحساب فقات الحرب . هذه الآن دول كانت مقاومة النظام الاشتراكي ، والآن تلتجأ اليه بعينه لتستعين به في الحرب . وحجتها في هذا الالتجاء ان الأمة كلها واحدة متضامنة الأجزاء أو هي شخص واحد Organism متضامن الأعضاء يجب ان تشترك جميع ذراته في العمل لحياته وبقائه — والتنظيم الحربي هو نوع من العمل

فشكراً للحرب التي غصبت هذه الحكومات على تقبل النظام الاشتراكي . وشكراً لأساطينه ليس غرض روح الاجتماع من الاشتراكية تبديد مجهودات الأمة في معمعات القتال . بينما ان يشترك جميع اجزاء الامة في الانتاج وفي التمتع بثمرات هذا الانتاج على السواء . ولما استتبَّ هذا النظام في هذه الدول حتى بعد الحرب هذا الغرض كان من شر الحرب التي لا بد

الاتحاد الدولي

نعود الى الجانب الاداري من النظام الجديد الذي ترمي اليه روح الاجتماع وهو التنظيم السياسي . فهو انضمام الدول في اتحاد واحد كانضمام الولايات المتحدة الاميركية والولايات السويسرية والولايات جنوب افريقيا وولايات كندا

هذا مشروع عظيم الشأن . ولا ريب في ان روح الاجتماع ترمي اليه من قديم سابقة . وكانت تلك الحرب تمهيداً له فتمخضت به ويلسن « جمعية الأمم » . ولكن ويلسن ولد سقطاً « جمعية أمم » لا « جمعية الأمم » ولذلك لم يطل عهد السلام على الارض . فشبت حرب اخيرة وهي تتمخض باتحاد دولي جديد . فان ولدته سليماً دام السلام على الارض مادام الولد سليماً لا يمرض . وان ولد سقطاً كما ولد أخوه قبله بقي السلام مفقوداً الى أن تتمخض به الهيئة الاجتماعية في حرب أخرى باتحاد دولي سليم

شرع هذا الاتحاد الدولي يتكوَّن في ضمير المجتمع منذ زمان طويل . وقد تكوَّن جنان

جنينه في القرن الماضي . وفي هذا القرن اتضحت صورته في فكر المجتمع

تألفت جمعيات له بعد الحرب الماضية في أميركا واوربا منها ما يعرف باسم « جمعية التاريخ الجديد » ومنها باسم « حرية الانسان » . وفي هذا العام أو ما قبله تألفت جمعية باسم « اتحاد الممالك » Federal Union . وهذا مقرّ في انكلترا بهذا العنوان :

Federal Union 44 Gordon Square London W. C. 1

لمن يشاء أن يستمد معلومات منها عن حركة هذا المشروع العظيم

وقد قرأت بضعة كتب في هذا الموضوع تبسط البراهين السديدة على امكان تحقيق هذا الاتحاد وتشرح كيفية انعقاده ، وتقدم حجج أنصاره الى ما هنالك مما يختص بالموضوع

وجميع الباحثين في الموضوع يدعون الى اتحاد جميع الدول على نمط الاتحاد الأميركي ، وان جمعية الفدراليين يونيون » تدعو جميع الدول الديموقراطية الكبرى الى إنشاء هذا الاتحاد أولاً ثم يرحب الاتحاد بكل دولة تريد الانضمام اليه

وقد اقتبست الجمعية المذكورة له دستور الولايات المتحدة الأميركية نفسه بتعديل يجعل لكي يطابق اخلاقيات الدولية العامة

والقراء يذكرون جيداً ، والأمل قريب ، ان بريطانيا العظمى كانت على أهبة تكوين دولة هي وفرنسا معاً إذ أعلنت مشروع اندماج انكلترا وفرنسا في دولة واحدة ذات حكومة واحدة وبرلمان واحد وجيش واحد الخ . ولكن فرنسا انهارت قبل ان يخرج هذا المشروع العظيم الى حيّز الوجود

والآن يشعل جنود العالم أجمع بمشروع تنظيم أوربا على نمط الاتحاد الفدرالي الأميركي

ولكن نجاح هذه وحفظ السلام انما لا دول أوربا ولا العالم بأسره يثق بنظام يخرج من مصنع حلف مهما يكن شكله

وحاصل ما تقدم ان سبب هذه الحرب ليس السبب المباشر الذي يتراءى لنا وهو العداء بين المانيا وبريطانيا من ناحية وانكلترا وفرنسا من ناحية أخرى . وانما هو تصادي النظام الاجتماعي القديم ، اقتصادياً وسياسياً ، وانشياق روح الاجتماع الى نظام اتحادي جديد تشترك فيه جميع الامم على قدم مساواة ، والى نظام اقتصادي جديد يشترك فيه جميع الافراد بنتاج أعمالهم

فان تمخضت هذه الحرب بهذا النظام الجديد دام السلام على الارض ما دام النظام الجديد صالحاً غير مريض ، والا كانت نهاية هذه الحرب هدنة قصيرة الأجل تعقبها حرب أخرى أفظع قد تتمخض بهذا النظام او لا تتمخض به ، أي انهُ لا يستتب السلام على الارض الا بقيام هذا النظام . ومن يعش يرَ